العقلي والمادي

في الفلسفة الحديثة

لفليمون موسى

من اهم القضايا التي اشتغل بها اهل الفلسفة منذ القديم ولعلها اهم تلك المسائل وأبعدها تأثيراً مسألة العقل والمادة . وان الفلسفة لا تزعم انها توصلت فيها الى حقيقة راهنة او رأي حاسم . الا ان الفلاسفة في غضون معالجتهم هذه المشكلة الفلسفية تمكنوا من كشف النقاب عن حقائق هامة جدير بكل مثقف الاطلاع عليها والاستنارة بها اذ انهُ على معرفتها يترتب كثير من شؤون المرء ومعتقداته الخاصة

ان كثيرين ممن تعاضوا عباب هذا البحث حتى من فريق الفلاسفة انفسهم توصلوا للاسف الى نتائج خيبة كان لها الاثر السيء في حياة الذين أخذوا بتلك الآراء واعتصموا بتلك المبادىء ويعلم الكثيرون من اهل الاطلاع انهُ طغت على العالم الغربي في اواسط القرن الماضي موجة عظيمة من امواج المادية فاكتسحت ممالك الغرب من اقصاها الى اقصاها واغرقت كثيرين في عبابها واتصلت اطرافها بعد ذلك بقليل بالبلدان الشرقية فهوى كثيرون ايضاً في لججها ومن يعلم ما يكون من اخطارها المقبلة وعواقبها الوخيمة في مستقبل الايام

ولا غرو ان يكون الامر كذلك فان البشر كما يقول العلامة الفيلسوف الاميركي جيمس « لا يزالون تحت تأثير المنظور اكثر من غير المنظور وانهم ليأخذون بالمحسوس اكثر مما لا يقاس مما يأخذون بالمعقول »

لذلك لا يلام البعض من غير طلاب الحقائق اذا اقتصروا على القدر اليسير من المعرفة . ولكن يلام فريق المتنورين وطلاب الحقائق الكلية اذا وقفوا عند حد المادة ولم يتجاوزوه الى الامام بما أقرهُ اقطاب الفلسفة ورجال العلم بهذا الصدد بعد جهود القرون وتفكير الدهور . وان المراد بهذا البحث الاشارة الى كيفية تطور هذه الفكرة فكرة المادة والعقل والأدوار التي مرَّت عليها منذ القديم الى يومنا هذا

معلوم ان فلاسفة اليونان وبنوع خاص الفيلسوف أريسطاطاليس كانوا قد قسموا عناصر الوجود الى قسمين عظيمين المادة والعقل . وهذا هو مذهب الثنية الذي لا يزال يقول به الفريق الاكبر من الفلاسفة الى يومنا هذا . وهو يناقض مبدأ ديمقريطوس في الوحدة المادية . وديمقريطوس هو أبو الماديين وزعيم الفكرة التي لايزال عليها الماديون حتى اليوم . الاّ ان فلاسفة اليونان لم يحددوا المادة والعقل تحديداً جليًّا ولا فصلوا بينهما على النحو الذي قام به الفيلسوف الفرنسي ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠) ولهذا بقي الرأي القديم في المادة والعقل على شيء من الابهام الى ان قام ديكارت فحدّد كلاً منهما وميّز بينهما تمييزاً تامًّا اذ قال ان العقل يختلف اختلافاً كليًّا عن المادة بل هو نقيض المادة وليس ثمة اي مماثلة او تشابه بينهما — ان خاصة الجسم المادي الامتداد وخاصة العقل التفكير وكلاهما مستقل بدائرته الخاصة ولا يمكن ان يكون بينهما شيء من التفاعل او العلاقة السببية . هذا هو رأي ديكارت على سبيل الايجاز الاّ انهُ لا ينطبق في بعض وجوهه على الحقيقة الواقعة فالانسان اذا أراد تحريك يده مثلاً فانهُ يحركها في الوقت الذي يشاء وعلى الصورة التي يريدها . فهنا واضح ان شيئاً عقليًّا هو الارادة يفعل او يؤثر في جسم مادي هو اليد . اذاً كيف يمكن وقوع مثل هذا الامر والعقلي والمادي شيئان متناقضان حتماً وليس من علاقة سببية بينهما بوجه من الوجوه . ان هذا الامر أوقع ديكارت في حيرة عظيمة وكان مشكلة فلسفية زمناً طويلاً . وهي الحيرة التي جعلت فولتير يلقب نفسهُ احياناً بالفيلسوف الجاهل وكان يطربهُ ان يلقب نفسهُ كذلك . وكثيراً ما كان يردد هذه العبارة ويراسل بها بعض اصدقائه من اهل الفلسفة مثل ديدرو وغيره وهي « ما قيمة هذه الفلسفة التي لا تستطيع ان تعلمني كيف او لماذا احرك يدي »

***

وقد حلل الفلاسفة من اتباع ديكارت مثل مالبرانش وغالنكس وغيرهما هذا الامر بطرق مختلفة أشهرها الطريقة المعروفة بنظرية التقابل Parallelism ومؤدّى هذه النظرية ان المادي والعقلي كلاً منهما في دائرته الخاصة مستقلٌ عن الآخر . غير انهُ عند حدوث اي حركة في الدائرة الواحدة يحدث التأثير الذي يشاكلها في الدائرة الاخرى على سبيل التقابل . ولكن لا على سبيل ان حركات الواحدة هي علة الاحساس او التأثير في الاخرى بل ان كليهما يحصلان معاً باتفاق لا نستطيع ادراكهُ

ويمكن تمثيل ذلك بايقاع عدد من الاصوات المتشابهة والمتوافقة معاً فانهُ يقوم لكل صوت عند الايقاع معنى خاص في الذهن . فلا يعلل ذلك بان الاصوات هي التي احدثت المعاني اذ

لا يوجد اي شبه بين الحركة الصوتية والمعاني العقلية . بل ان الاصوات والمعاني قامت في ذهن السامع معاً وذلك باتفاق غريب لا ندرك كنهه وهذا هو المراد بنظرية التقابل هذه

بيد ان اهل الفلسفة لم يستطيعوا الوقوف عند حدود هذه النظرية اذ انهُ مع الاعتراف والتسليم بنظرية ديكارت من انهُ لا يمكن وجود اي تشابه في الماهية او في الصل بين المحرك او المؤثر المادي والعمل العقلي الاّ ان الصلة بينهما اكيدة وتأثير احدهما في الآخر لا يمكن نكرانهُ فالفكر يؤثر في حالة الجسم واحوال الجسم تؤثر كثيراً في الحالات الفكرية . اذاً لا بد ان يكون هنالك علاقة متينة لا مندوحة من التسليم بها او مخرج مشترك بين الاثنين يفسر هذا التفاعل بينهما وهذه الصلة القوية التي تربط احدهما بالآخر . وهذا ما ادى الى نظرية سبينوزا[1] الفيلسوف الهولندي صاحب المذهب الحلولي (Pantheism) وهي ان المادي والعقلي هما وجهان او مظهران للمادة الواحدة الاصلية العامة والتي ليست في ذاتها لا مادة ولا عقلا . ومؤدى نظرية سبينوزا هذه ان العقلي والمادي شيئان متلازمان متحدان . حيث توجد مادة فهناك عقل ايضاً فلا مادة بلا عقل ولا عقل بلا مادة . وان هذه النظرية هي ذات شأن خطير في عالم الفلسفة . وكثير من فلاسفة هذا العصر يرجعون اليها في معظم ابحاثهم . وكانت هذه النظرية في العصر الاخير بنوع خاص مذهب الفيلسوف الانكليزي هربرت سبنسر والفيلسوف الالماني فخنر

اما الفيلسوف ليبنتز (١٦٤٦ — ١٧١٦) فيرى ان جواهر المادة ليست الاّ مراكز قوة او مجموع قوى متعددة انما اذا اردنا تعريف هذه القوى فيقال انها روحية اكثر منها مادية لهذا فان ليبنتز يغلب العنصر الروحي كثيراً على المادي وقد كانت نظريتهُ هذه دعامة قوية لاصحاب المبدأ الروحي في الفلسفة

***

ويطول بنا المقام اذا اردنا ان نعدد آراء كل من اهل الفلسفة بهذا الصدد ولكن نقول بوجه الاجمال ان الاتجاه الفلسفي بعد عصر ديكارت وليبنتز وسبينوزا قد كان في جهة المبدأ الروحي وكان قد اخذ هذا المبدأ بالتقدم على المادي منذ وضعت نظرية التقابل المذكورة آنفاً فلم يعد ممكناً اعتبار القوة العقلية نتيجة من نتائج الحركة المادية او اثراً من آثارها كما يزعم اصحاب

(١) هو الفيلسوف الهولندي الشهير (١٦٣٢—١٦٧٧) صاحب مذهب الحلول المعروف باسم Spinozism

الرأي المادي . واستمرت هذه الفكرة في نمو وازدياد الى ان بلغ المذهب اوج سيادته في النصف الاول من القرن الماضي في فلسفة الفلاسفة الالمان من كانت الى هيجل وفختي وشوبنهور . وكانت فلسفة هيجل وشلنج بنوع خاص فلسفة عقلية محضة (Absolute Idealism) أي القول بوجود العنصر الروحي فقط دون المادي في الوجود

***

واذ نثبت هنا نظرية الفيلسوف الفرنسي فوّيه (A. Fouillée) ١٨٣٨ — ١٩١٢ وهو يريد بها التوفيق او الجمع بين الرأيين المادي والعقلي فانما نعبر عن رأي الكثيرين من اهل الفلسفة في هذا العصر الاخير

يقول فويّه ان الماديين يخطئون بزعمهم ان كل السرّ في الحركة المادية بصرف النظر عن العوامل الاخرى . كما يخطىء العقليون بجعلهم العقل الكل في الكل بقطع النظر عن العنصر المادي . ان العقل والمادة او الحياة والوجدان يمثلان معاً في الطبيعة كبداً واحد شامل وما هما الاّ وجهان او طريقتان لادراك الشيء الواحد كالمعنى المفرد يدل عليه لفظان مترادفان . وما التأثيرات او الانفعالات العقلية الاّ مظاهر او نتائج لعوامل حسية مادية قبلها . اما الوجود العقلي فهو الحقيقة الواحدة التي اعطي لنا ان ندركها مباشرة . لهذا يحق لنا ان نفسر هذا الوجود على هذا النحو اي بانهُ مظهر الحركة او النشاط العقلي او بانهُ قوى فكرية فقط — Idées-forces

اما فريق الماديين فاذ كانوا لا يستطيعون التحول عن وحدتهم المادية لئلاّ ينقض مذهبهم من اساسه فقد زعموا ان العقل ليس سوى نتيجة الحركة المادية في الدماغ وهي اهتزاز دقائقه وما الفكر الاّ وظيفة الدماغ كما ان الهضم وظيفة المعدة . بيد ان جمهور الفلاسفة لا يعيرون هذا القول التفاتاً ولا يحسبون لهُ قيمة فلسفية لانهم يرون ان زعماء هذا الرأي يمكنون الآية فيجعلون العقل تابعاً للمادي بينما الامر على العكس من ذلك تماماً

***

أقول وليت أدباء هذه البلاد وأعني منهم الغارقين في لجج المادية يقتدون على الاقل بفلاسفة العالم فلا يخوضون ويجزمون بأمور هي فوق طاقة العقل البشري ان يبتّ فيها حكماً جازماً . ولا أظنهم ينكرون ان هذا الاغراق في المادية لهُ عواقبهُ السيئة في الآداب والمبادىء والاخلاق ولعلهم يتذكرون